

معروف الرّصافي؛ وقفات في حياته، وأدبه

توفيق رجبى*

الملخص

يعتبر معروف الرصافي أحد أربعة مجيدين من شعراء العراق المحدثين؛ والآخرون هم: الزهاوى، والكاظمي، والشبيبي. ولد الرصافي ببغداد حوالي سنة ١٨٧٥م، وتعلّم القراءة، والكتابة، وحفظ القرآن في مكاتب العراق، ثم دخل المدرسة العسكرية، ولكنه نقر منها، وانصرف إلى الدراسة الحرّة، والمدارس الدينية، وقد وجهه شيخه الألوّس وجهة أدبية. كان الرصافي فقيراً فاشتغل بالتعليم، والصحافة، وعين مفتشاً للغة العربية بوزارة المعارف ثمّ انتخب نائباً في المجلس النيابي، وكانت وفاته سنة ١٩٤٥م. أنتج الرصافي كثيراً من المؤلّفات وديوان شعر كبير، أكثر فيه من الوطنيات، والوصف، والاجتماعيات. كان الشاعر كثير العطف على البائسين، يصوّر آلامهم، ويستحثّ قومه على الرّفق بهم، وقد برع في هذا اللون براعة فائقة لأنه ذاق مرارة العيش، وقسوة الحياة.

الكلمات الدليلية: الرّصافي، شعراء العراق، شاعر البؤساء، سجينّة الدّار، الوصف، القصيدة.

*. عضو هيئة التدريس بجامعة آزاد الإسلامية في أردبيل.



المقدمة

خلف الرصافي آثارا كثيرة في النثر، والشعر، واللغة، والأدب منها: ١- «الأناشيد الوطنية» وهي طائفة من الأناشيد الوطنية، والأدبية نظمها الشاعر لطلاب المدارس.

٢- «نفع الطيب في الخطابة والخطيب» وهو مجموعة محاضرات ألقاها على طلبة مدرسة الواعظين في الآستانة.

٣- «دروس في آداب اللغة العربية» وهي محاضرات ألقاها في دارالمعلمين العالية ببغداد.

٤- «رسائل التعليقات» في نقد كتاب «النثر الفني»، وكتاب «التصوّف الإسلامي».

٥- «على باب سجن أبي العلاء» وفيه ردّ على طه حسين في كتابه «مع أبي العلاء المعري».

٦- «تمائم التربية والتعليم» وهي مجموعة شعرية صدر عام ١٩٢٤م.

٧- «الرؤيا» رواية للأديب التركي ناصف كمال نقلها الرصافي إلى العربية.

٨- «ديوان الرصافي» ويعرف بالرصافيات، تولى طبعه، وتبويب قصائده، وتفسير غريبها محيي الدين الخياط والشيخ مصطفى الغلاييني، وقدرت على أربعة أبواب: الكونيات، والاجتماعيات، والتاريخيات، والوصفيات. وطبع سنة ١٩١٠م. (الفاخوري، ١٩٨٦م: ٤٨٧)

يعتبر الرصافي شاعر الاجتماع، والسياسة حيث دعت البيئية، وأحوال العصر إلى الاهتمام بشؤون الوطن، والناس، وموضوعات كحرية الرأي، ونشر العلم، والقضاء على الجهل، وإخراج المرأة من ظلمتها، والاعتماد على النفس، ونبذ التخاذل، ونشر لواء العدل، وإنصاف الطبقة البائسة ... حتى عرف بشاعر البؤساء». (الفاخوري، ١٩٨٦م: ٤٨٨)

كان همّه الأوّل أن يوقظ الناس من غفلتهم فيتطلّعوا على الوجود تطلّع الأحياء ويخرجوا من الجمود إلى الحركة، ومن الخمول، والتشنج إلى العمل الذي ينفع.

يرى الرصافي أنّ السبب الرئيسي في تخلف الشرقيين عامة، والعرب خاصة هو انتشار الجهل في ربوعهم ويقول: «العلم هو النور الذي يهدى والفكر الذي بيدع واليد



التي تصنع، فالجهل موت.» (العقاد، ١٩٤٧م: ٣٥٥) والرصافي يريد الحياة لأمته فيشجع على طلب العلم لأن العلم عنده يضمن الحياة العزيزة ويرفع الإنسان إلى مستوى إنسانيته ويفتح له أسرار الوجود، ويجعل طاقات الطبيعة بين يديه، فيخترع، وينجز، ويبني، ويكتشف المجهول، ويخترق أجواء الفضاء، كما يغوص إلى أعماق الماء وبالعلم تزدهر الأوطان حيث يقول:

بِالْعِلْمِ تَنْتَظِمُ الْبِلَادُ فَإِنَّهُ لِرُقَى كُلِّ مَدِينَةٍ مِرْقَاةٌ

أُتِّهِمُ الرَّصَافِي فِي دِينِهِ كَمَا أُتِّهِمُ الزَّهَّاءِي، وَمَا هُوَ بِالْكَافِرِ، وَلَا الْمَارِقِ، وَإِنَّمَا هُوَ الْمُؤْمِنُ الَّذِي لَا يَرَى الدِّينَ فِي الْقَشُورِ، وَالتَّعَصُّبِ، وَالْجَهْلِ. وَالدِّينَ فِي نَظَرِهِ هُوَ الْإِيمَانُ النَّبِيَّ، وَالْعَمَلَ الْخَيْرَ. وَالدِّينَ خَيْرَ، وَصَلَاحَ، وَالتَّعَصُّبَ ظِلْمَةً، وَجَهْلًا.

لم يأتِ الرصافي بجديد في موضوع المرأة، ومرجع آرائه في هذا الباب إلى أن المرأة العربية جاهلة، ولا بد من تثقيفها لأنها مربية النشء وهي محتقرة ومظلومة ولا بد من تحريرها لأنها إنسان كامل الإنسانية، وهي سجين الدار ولا بد من إطلاقها لأنها كالرجل خلقت لتعمل. والرصافي يقارن ما بين المرأة المسلمة اليوم والمرأة العربية القديمة.

وإذا نظرنا نظرة فاحصة إلى شعره نرى أن الوصف شائع في شعر الرصافي حيث نجده في كل باب. يصف على سبيل المثال القطار، وقد ركب من الآستانة إلى سلاويك، وعجب لما وجد فيه من سرعة انتقال ومن تغلب على الصعاب ثم من دعة وهناءة. (الفاخوري، ١٩٨٦م: ٤٩٧)

وَقَاطِرَةٌ تَرْمِي الْفُضَا بِدَخَانِهَا
تَسَاوَى لَدَيْهَا السَّهْلُ وَالصَّعْبُ فِي السَّرَى
وَقَالَ يَصِفُ الشَّمْسَ الْغَارِبَةَ، وَهُوَ فِي الرَّيْفِ بَيْنَ الْمَرْجِ الْخَضِرِ:

نَزَلَتْ تَجْرُ إِلَى الْغُرُوبِ ذُيُولًا
تَهْتَزُّ بَيْنَ يَدِ الْمَغِيبِ كَأَنَّهَا
صَفْرَاءُ تُشْبِهُ عَاشِقًا مَتَبُولًا
صَبٌّ تَمَلَّمَلَمَ فِي الْفَرَاشِ عَلِيلًا
وَبَكَتْ مَعَارِبُهَا الدَّمَاءَ أَصِيلًا
ضَحَكَتْ مَشَارِقُهَا بِوَجْهِكَ بُكْرَةً

حينما تصفح ديوان الرصافي نجد فيه قصائد ومقاطع حكمية كثيرة وكأني بالرجل



قد أرادَ أن يكون معلماً ومرشداً لأبناء قومه، حيث يقول:

لَعْمُكَ مَا كُلَّ انْكَسَارَ لَهُ جَبْرٌ وَ لَا كُلَّ سِرٍّ يَسْتَطَاعُ بِهِ الْجَهْرُ
وَمَا النَّاسُ إِلَّا خَادِعٌ أَدْرَكَ الْمُنَى وَآخَرَ مَخْدُوعٍ لَهَا غَيْرُ مُدْرِكِ
لَوْ قَاسَ كُلُّ فَتَى سِوَاهُ بِنَفْسِهِ فِيمَا أَرَادَ لَمَّا تَعَادَى اثْنَانِ
لَوْ أَخْلَصَ الْإِنْسَانُ فِي إِحْسَانِهِ لَمْ يَرْجُ أَنْ يَجْزَى عَلَى الْإِحْسَانِ

(الرصافي، ١٩٣١م: ١٧٢)

وهناك موضوعات أخرى في شعره منها: البؤس والفقر، فتراه كثيراً ما عرض الرصافي للبؤس والبؤساء، والفقر والفقراء، واليتيم والأيتام. قال في حديث له: «كانت مشاهد البؤس من أشدّ الدواعي عندي إلى نظم الشعر».

أمّا الأفاصيص الحزينة فنجدها في قصائد مشهورة من مثل «اليتيم في العيد»، و«الفقر والسقام»، و«أمّ الطفل في مشهد حريق»، وقد ظهر الشاعر في هذه القصائد بمظهر الإنسانية وروح كريمة حافلة بالحنان والشفقة وقلب كبير تملأه المحبة لبني الإنسان وعين سخية تذرف الدمع على شقاء البشر. وكثيراً ما نراه فيها يتوجّه إلى الله طالباً الرحمة للبائسين، ويتوجّه إلى الأغنياء طالباً الشفقة ومدد المعونة إلى المعوزين. وفي هذا المجال نذكر شذرات من قصيدته «امرأة بائسة»:

لَقَيْتُهَا لَيْتَنِي مَا كُنْتُ أَلْقَاهَا تَمْشِي وَقَدْ أَثْقَلَ الْإِمْلَاقُ مَمْسَاهَا
أَثْوَاهُا رِثَةً وَالرَّجْلَ حَافِيَةً وَالْدَّمْعُ تَذْرِفُهُ فِي الْخَدِّ عَيْنَاهَا
بَكَتْ مِنَ الْفَقْرِ فَاحْمَرَّتْ مَدَامِعُهَا وَاصْفَرَ كَالْوَرَسِ مِنْ جُوعِ مَحْيَاهَا
مَاتَ الَّذِي كَانَ يَحْمِيهَا فَالْدَّهْرُ مِنْ بَعْدِهِ بِالْفَقْرِ أَشْقَاهَا
وَيَسْعِدُهَا الْمَوْتُ أَفْجَعُهَا وَالْفَقْرُ أَوْجَعُهَا وَالْهَمُّ أَنْحَلَهَا وَالْغَمُّ أَضْنَاهَا
فَمَنْظَرُ الْحُزَنِ مَشْهُودٌ بِمَنْظَرِهَا وَالْبُؤْسُ مَرَّاهُ مَقْرُونٌ بِمَرَّاهَا
كَرَّ الْجَدِيدِينَ قَدْ أَبْلَى عِبَاءَ تَهَا فَانْشَقَّ أَسْفَلُهَا وَانْشَقَّ أَعْلَاهَا
وَمَزَّقَ الدَّهْرُ وَيْلَ الدَّهْرِ مِثْرَهَا حَتَّى بَدَأَ مِنْ شَقُوقِ الثُّوبِ جَنْبَاهَا
تَمْشِي بِأَطْمَارِهَا وَالْبَرْدُ يَلْسَعُهَا كَأَنَّهُ عَقْرَبٌ شَالَتْ زُبَانَاهَا



حتّى غدا جسمها بالبرد مُرتجفا كالغصن في الريح واصطكت ثناياها

(محمد السيد، ١٩٧٠م: ١٦٧)

يتحدّث الشاعر في هذه الأبيات عن أرملة مصورا سوء حالها وشدة بؤسها، حيث يقول: رأيتُ هذه المرأة وكنتُ أتمنّى ألا أراها، كانت تمشي بطيئة متخاذلة وقد أنهكها الفقر وأثقل خطاها الحرمان. تمزّقت أثوابها وحفيت قدمها، وتساقطت على خدّها دموعُ عينها. لقد أكثرت من البكاء حتى التهيت كالجمر عينها وأنهكها الجوع حتّى اصفرّ كالورس لونها. فقد مات زوجها الذي كان مبعث أمنها وسعادتها وقسا عليها الدهر فقضى بفقرها وبؤسها. فتجمّع عليها ألم الموت والفقر، وسبّب لها الحزن الهزال والمرض، حتى صارت صورة صادقة للحزن وتمثالا حيا للشقاء والبؤس. لقد بليت عباءتها من تعاقب الأيام عليها فتمزّق أعلاها وانشق أسفلها. ومزّق الدهر ثوبها حتى ظهر من ثقبه جسمها. وكان البرد يتسرّب إليها وهي تسير في أسماها، فيلسعها كما تلسع العقرب الشائلة فريستها. فأخذت أسنانها تضطرب وتصطكّ، وجسمها يهتزّ في البرد اهتزاز الغصن في مهب الريح.

واستطاع الشاعر في الأبيات السابقة أن يعطى صورة حية مؤثرة للمرأة البائسة الحزينة التي فقدت زوجها، وساء في الدنيا حظها، فهي دامعة العين، هزيلة الجسم، حائلة اللون، ممزّقة الثوب، بائسة المنظر. والشاعر يستخدم الصورة الشعرية فيجمع جزئيات المنظر، فتحس كأنك واقف أمام المرأة، تراها وتألّم لمنظرها، وإليك قوله:

أثوابها رتّة والرجل حافية والدّمع تذرفه في الخدّ عينها
بكت من الفقر فاحمرت مدامعها واصفرّ كالورس من جوع محياها

(الرصافي، ١٩٣١م: ٢١٣)

حيث تجد أمامك امرأة مسكينة دامعة شاحبة. وقرأ قوله:

حتّى غدا جسمها بالبرد مرتجفا كالغصن في الريح واصطكت ثناياها

تراها أمامك مرتعدة مرتجفة من شدة البرد وقسوة الزمهير. (محمد السيد، ١٩٧٠م:

والشاعر يلجأ إلى التشبيه عندما يقول: واصفرّ كالورس، كأنه عقرب، كالغصن في الريح و.... كما يميل إلى الاستعارة عند قوله: أثقل الإملاق ممشاهها، مزّق الدهر مئزرها، البرد يلسعها. وأخيراً يعتمد على الكناية في قوله: فمنظر الحزن مشهود بمنظرها والبؤس مرآه مقرون بمرآها، فهي حزينه بأئسة.

وتعتبر هذه القصيدة نموذج من نماذج الشعر الاجتماعي الذي يتناول ناحية من نواحي المجتمع فيعرضها أو يعالجها. وهذا الغرض في قصيدة الرصافي من أغراض الشعر التي ظهرت في هذا العصر وبرز فيها بعض الشعراء كالرصافي وحافظ وشوقي.

وإذا كان من حديث عن الموسيقى في هذا النص فإنها هادئة تناسب موضوعه المشحون بالأسى والحزن، والشاعر التزم في قصيدته تقسيم البيت إلى شطرين متساويين، كما التزم قافية واحدة ختم بها جميع الأبيات، كما كان يفعل قدامى الشعراء. والقصيدة من بحر البسيط.

وللقصيدة وحدة فنية تربط بين أجزائها وتجعلها بناء متماسكاً يشدّ بعضه بعضاً، والوحدة الفنية للقصيدة من مظاهر التجديد في هذا العصر.

وأخيراً نذكر ما قال شوقي ضيف في حقّه: «شاعرنا (الرصافي) لا يعيش لنفسه، وإنما يعيش لمواطنيه، وقد يمتدّ بصره إلى أعلى فيعيش للإنسانية كلّها، وهو يستخلص لشعبه كلّ الميزات التي تحيله شعباً ممتازاً في خلقه، وروحه، وعقله، ولعلّه من أجل ذلك كان الرصافي يشيد دائماً بالعلم ويدعو إلى إعطاء المرأة حقوقها، وإنه ليفزع إلى ربّه يطلب منه الرحمة بالبشر، حتى في الموت والجزاء، وإنه ليتساءل فيم هذا الاختلاف بين الناس؟ ولماذا كان بعضهم في نعيم وبعضهم في عذاب؟ وإنّ ذلك ليشقى الرصافي، بل لكأنّه هو الشقى المحروم الذي ينعا، فالحياة مظلمة من حوله، وروحه في قلق دائم تريد للناس جميعاً أن يكونوا سعداء، وأن يزيل الشقاء البشر كلّهم من مسلمين وغير مسلمين، وهو لذلك يكثر من الأئين، ومن دعوة الأغنياء إلى أن يمسحوا على بؤس البائسين. ولعلّ في ذلك كلّ ما يدلّ على أنه كان يحلم للناس وخاصة من مواطنيه بعالم سعيد.» (ضيف، ١٩٥٩م: ٣٨)



النتيجة

كانت هذه لمحة وجيزة عن مواقف الرصافي من الحياة ونرى هذه الآراء في شتّى قصائده ولاسيما «تنبيه النيام»، و«رقية الصريح»، و«إيقاظ الرقود»، و«بعد الدستور». فالرصافي شاعر الاجتماع، والسياسة من الدرجة العالية؛ يعطف على الفقراء البائسين لأنه ذاق مرارة البؤس، والفقر، ويشير في شعره إلى مشاكل اجتماعية بمواقفه النقدية. وهو إلى ذلك لشاعر القومية العربية الذي دعا العرب إلى توحيد صفوفهم وإحياء مجدهم في ماضيهم.

المصادر والمراجع

- ابن منظور، جمال الدين بن مكرم. ١٩٨٨م. لسان العرب. بيروت: دار التراث العربي.
 البستاني، بطرس. ١٩٧٧م. محيط المحيط. بيروت: مكتبة لبنان ناشرون.
 الرصافي، معروف. ١٩٣١م. ديوان الرصافي. بيروت: دار الفكر.
 ضيف، شوقي. ١٩٥٩م. دراسات في الشعر العربي المعاصر. القاهرة: مكتبة مصر.
 العقاد، عباس محمود. ١٩٤٧م. معروف الرصافي. بيروت: دار الجيل.
 الفاخوري، حنا. ١٩٨٦م. الجامع في تاريخ الأدب العربي. بيروت: دارالجيل.
 محمد السيد، عبدالرحمن. ١٩٧٠م. المعنى في النصوص والأدب. بيروت: دار العلم للملايين.

